المتنبى وحساده

كان أبو الطيب المتنبى رجلاً فريد الطابع ، بارز الشخصية ، يكاد يتفجر العلم من جوانبه ، وترف على جبينه لمحات العبقرية ، وإنى أرجح أنه كان أحق من الأمير بدر بن عمار ممدوحه بقوله فيه :

تعرف فى عينه حقائقه كأنه بالذكاء مكتحل

وما أحسب القائلين بالفراسة كانوا فى حاجة إلى بذل مجهود لتعرف مواهبه ، واستطلاع نبوغه وتفوقه ، وقد شق طريقه على ما كان به من عقبات وأشواك ، وفرض نفسه على عصره فرضاً ، واستأثر بالنصيب الأوفى من عناية معاصريه ، وشغلهم بنفسه ، وكاد يصرفهم صرفاً تاماً عن غيره من الشعراء والكتاب .

روى أحد أصحاب الوزير الأديب ابن العميد أنه دخل عليه يوماً قبل أن يزوره المتنبى – فوجده واجماً ، وكان قد ماتت أخته عن قريب ، فظنه واجداً لأجلها فقال له « لا يحزن الله الوزير فما الخبر؟ » .

فأجابه ابن العميد « إنه ليغيظنى أمر هذا المتنبى ، واجتهادى فى أن أخمد ذكره وقد ورد علىَّ نيف وستون كتاباً فى التعزية ما منها إلا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

فكيف السبيل إلى إخماد ذكره ؟

فأجابه صاحبه « إن القدر لا يغالب ، والرجل ذو حظ من إشاعة الذكر ،

واشتهار الاسم ، فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر» .

وإذا صحت هذه الرواية ، وهى محتملة إلى حد بعيد ، فإنها تدل على أن ابن العميد ، على جاهه العظيم ومكانته العالية كان ينفس على المتنبى ذيوع شعره وبعد أثره .

وكان أبو الطيب بحكم صناعته وظروف بيئته وملابسات عصره مضطراً إلى غشيان أبواب الملوك والرؤساء وأعيان العصر وأقطاب الدولة وأصحاب النفوذ والجاه والثروة حيث يشتد التنافس ويقوى التزاحم بالمناكب ، والطير يسقط حيث يلتقط الحب ، والمورد العذب كثير الزحام ، وفى أمثال هذه الأوساط تروج الدسائس والتمائم ، ويكثر التحاسد والتباغض ، وكل فرد يقع فى الآخر ، ويلتمس أن يصيب منه غرة ليبطش به ويزيله من الطريق . وفى مثل هذه الجواء قضى المتنبى جانباً كبيراً من حياته . وهو رجل صريح لا يداجى ، ولا يتكلف إخفاء عواطفه وكتمان آرائه . وفضلاً عن ذلك فإنه كان شديد الكبرياء ، كثير التفاخر ، دائم الاعتداد بنفسه والمغالاة بقيمته ، لا يلين للناس ولا يتواضع . فليس عجيباً بعد ذلك أن يكثر حساده وأعداؤه ، وأن يقضى حياته فى هم دائم وشكوى متصلة من دسائسهم ومكائدهم .

وكان تيه المتنبى وتعاليه وتفاخره يزيد حسد الحاسدين تلهباً واشتعالاً وكراهة الكارهين حدة واتقاداً ، وينصح شوبنهاور بأن خير سبيل يسلكه الإنسان إذا كان معرضاً للحسد هو الابتعاد عن الحساد ومجانبتهم . وإذا لم يتيسر ذلك فخير سبيل هو تلقى هجماتهم بهدوء وقلة اكتراث ، لأن ذلك جدير بأن يجرد تلك الهجمات من عنفها وقوتها ، ولم يكن فى وسع المتنبى الابتعاد عن حاسديه . لأنه لم يكن له معدى عن منازلتهم فى ميادينهم ، ومسابقتهم فى حلباتهم . وكان يبرهم ويسبقهم ويغلبهم على أمرهم ، ولا يترفق بهم بعد ذلك ، بل لعله كان

قاسياً فى تحريه على الدوام عرض قوته الحاشدة ، والإدلال بمكانته العالية ، والاستخفاف بمنافسيه ، والاستهانة بأعدائه ومناظريه ، انظر إلى قوله مخاطباً سيف الدولة .

أزل غضب الحساد عنّى بكبتهمْ فأنت الذى صيرتهم لى حسداً

ويقول من قصيدة أخرى :

رويدك أيها الملك الجليل تأن وعده مما تنيل
لأكبت حاسداً وأرى عدواً كأنهما وداعك والرحيل

فهو لا يود أن تشفى نفوس الحساد من الحسد ، ولا يحاول أن يستصفى مودتهم وإنما يود لهم أن يموتوا بغيظهم .

وفى بعض الأحيان كان يتنصل من محاولته إثارة الحسد فى نفوس منافسيه .

وما كمد الحساد شىء قصدته ولكنه من يزحم البحر يغرق

وفى أوقات أخرى كان يصرح باستعداده لاسترضاء حساده ولكنهم يحسدونه على حياته فماذا يصنع ؟

فلو أنى حسدت على نفيس لجدت به لذى الجد العثور
ولكنى حسدت على حياتى وما خير الحياة بلا سرور

وقد أدركته مرة الشفقة عليهم فرثى لحالهم وتنازل من عليائه ليعذرهم ويقول :

وللحساد عذر أن يشحوا على نظرى إليه[1] وأن يذوبوا
فإنى قد وصلت إلى مكان عليه تحسد الحدق القلوب

وكان فى طليعة طلباته من كافور الإخشيدى « إغاظة حاسديه » كما فى قوله

---

(١) الضمير فى إليه يعود على سيف الدولة .

أبا المسك أرجو منك نصراً على العدى وآمل عزا يخصب البيض بالدم
ويوماً يغيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التنعم

ويقول فى مدحه لكافور من قصيدة أخرى

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات فى نعمائه يتقلب

وهو بيت يستوقف النظر ، فالحسد على شناعته ودمامته عاطفة من العواطف الإنسانية المألوفة ، ولا يكاد يخلو منه إنسان ، ومن الطبيعى أن يحسد القزم العملاق ، والفقير الغنى ، والمريض الوصب السليم المعافى ، والأثرة غالبة على الطبائع ، فكل مخلوق يود أن يستأثر بطيبات الدنيا ومتعها ولذاتها ، وأن يستولى على كل شىء ، وأن يجاب له كل مطلب ، وتحقق كل أمنية ، وأن يكون قطب الوجود وغايته وهدفه ، وأول ما يثير الحسد أن يكون للغير ما يملكه ويعتز به ، ومجرد تفكيرنا فى أن الغير يملك شيئاً يثير حسدنا ، وينبه جشعنا ، وقد روى العلامة النفسى ستيكل عن نفسه أنه أعطى مرة أحد زملائه الفقراء بذلة قديمة أصبحت غير صالحة لأن يرتديها ، فلما لبسها زميله وأبصرها عليه راقته ، وعجب من أمر نفسه ، وكيف طاوعته على التفريط فيها ومنحها لزميله !

وواضح هنا أن مجرد خروج الحلة من حوزته هو الذى أثار حسده مع كثرة وجود غيرها من الملابس اللائقة المناسبة ، ولا يستمتع الإنسان بحيازة شىء إلا إذا كان يحسد عليه ، وتتجلى فى ذلك قسوة الإنسان ورغبته فى إيلام الغير وتعذيبهم وتعاميه عن النظر إلى قوة الحسد وما قد تحدثه من الآثار السيئة ، فالمرأة التى تتخايل بجمالها وزينتها وحليها تتعمد إثارة الحسد ولا تفكر فى عواقب ذلك ، ولقد وجه إلى المتنبى فى حياته نقد كثير وكان بعضه شديد الوطأة جارحاً هداماً ، ولم يكن رائد نقاده فى كثير من الأحيان حب الحق أو توخى العدل ، وإنما كان باعث نقدهم الحسد الشديد والحقد الدفين ، والواقع أن الحسد من

الخطايا السبع الكبرى المنكرة التى حاولت الأديان والمذاهب الأخلاقية مقاومتها والتغلب عليها ، وقد يكون الحسد لوناً من ألوان طلب المساواة بين الناس ، والمشاهد أن أى إخلال بهذا القانون يثير المعارضة ويهيج البغضاء ، فهو قانون من قوانين المجتمع ، وفى اعتقادى أن النظام الديمقراطى هو خـــــير أنظمة الحكم وأقربها إلى الطبيعة الإنسانية وأعودها بالخير عليها ، ولكن النظريات والمثل العليا والأفكار تكون فى أغلب الأوقات ستاراً للأهواء والعواطف ، وأقوى العواطف التى ساعدت على ظهور الديمقراطية ويسرت لها السبيل هى عاطفة الحسد ، فالحسد إذاً على ما له من مساوئ وعيوب لا يخلو من نفع ، والرجل الذى يحسد من بات فى نعمائه يتقلب قد لا يكون من أظلم أهل الظلم كما يرى أبو الطيب ، وقد يكون بائساً محروماً فقيراً مشرداً مضطهداً يعانى من حياته الويل والعذاب ويلقى من دهره الهوان والإهمال فله عذره إن حسد من بات فى نعمائه يتقلب ، وضيق أبى الطيب بحساده هو الذى جعله يذهب هذا المذهب ويلقى بهذا البيت

وقد حدثنا فى قصيدة أخرى من مدائحه فى سيف الدولة عن يأسه من علاج حسد الحاسدين والظفر بمودتهم فقال :

سوى وجع الحساد داو فإنه إذا حل فى قلب فليس يحول

ولا تطمعن من حاسد فى مودة وإن كنت تبديها له وتنيل

ولكن أى مودة كان يستطيع أبو الطيب أن ينيلها حاسديه وهو يتعالى عليهم ويشعرهم بعدم المساواة بينه وبينهم ؟ السياسة الوحيدة التى كان يستطيع أبوالطيب أن يهدئ بها ثورة الحسد فى نفوس منافسيه وخصومه هى التزام التواضع ، وتحرى الاعتدال وترك التفاخر وتعمد إظهار القدرة الفائقة والامتياز الغالب ، ولم يكن ذلك فى طبع المتنبى ولا فى مستطاعه ، ولا يكلف الله نفساً

إلا وسعها ، وكان أبو الطيب كلما تنكر له الناس وعكست حظه الأيام ازداد إكباباً على نفسه وتعالياً بها واستمسك بقوله :

وفى ما قارع الخطوب وما آنسنى بالمصائب السـود

وقد علل مرة حسد حاسديه بأنه ناشئ من أنه هو نفسه عقوبة لهم فقال :

إنى وإن لمت حاسدى فما أنكر أنى عقوبة لهم

وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كل هامة قدم

يهابه أبسأ الرجال به وتتقى حد سيفه البهم

ولحسن الحظ أن فى البشرية عاطفة أخرى قوية تعادل عاطفة الحسد وتوازنها وتستدفع شرها وتنقذ الناس من مخالبها ، وهى عاطفة الإعجاب ، ولو كان الإنسان مطبوعاً على الحسد وحده لهلك الكثيرون ولفسدت الحياة فساداً لاصلاح معه ولا علاج له ولسد الطريق فى وجه النوابغ الأفذاذ والأبطال المبرزين ، فهم إن كانوا يثيرون الحسد ويستهدفون لكيد الحساد فإنهم كذلك يظفرون بالإعجاب الذى يمهد لهم السبيل ويسمح لمواهبهم بالتفتح والازدهار ، وقد روى صاحب سرح العيون أن السرى الرفاء الشاعر دخل على سيف الدولة يوماً فقال : يامولانا كم تفضل علينا هذا الكندى - يعنى المتنبى - ولو أمرتنى أن أنظم على وزن أى قصيدة شئت من قصائده لنظمت ما هو أجود منها ، فقال له سيف الدولة وقد علا وجهه الابتسام «إنظم على قصيدته التى أولها «لعينيك مايلقى الفؤاد وما لقى» فخرج السرى الرفاء من عنده على ذلك وفكر فى القصيدة فلم يجدها من طنانات المتنبى ، فعلم أن سيف الدولة أراد أمراً بتخصيصه هذه القصيدة فى الاقتراح فنظر فى أبياتها فإذا هو يقول فيها مادحاً سيف الدولة ومفتخراً بنفسه .

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غبارى ثم قال له الحق

فعلم السرى الرفاء أن سيف الدولة أراده بهذا المعنى فكف عن النظم ، وإذا صحت هذه الرواية فهى ترينا كيف كان إعجاب سيف الدولة بالمتنبى وتقديره له يحميه فى مواطن كثيرة من حسد الحاسدين ويرد عنه كيد الكائدين ، وعاطفة الإعجاب تلعب فى الحياة دوراً لا يقل أهمية وتأثيراً عن عاطفة الحسد .

ولكن هل كان المتنبى الذى لا يفتأ يشكو كثرة حاسديه بريئاً من الحسد ؟ المعروف أن المتكبرين المعجبين بأنفسهم الواثقين بها أقل تعرضاً للحسد من المتواضعين المعتدلين ، لأن المتكبر المعتد بنفسه يعتقد أنه لا ينقصه شىء مما عند الناس ، وأن الناس ليس عندهم ما يستحقون أن يحسدوا عليه ، ولكن المتنبى من ناحية أخرى كان طموحاً شديد التطلع إلى ما فى يد الناس ، وقد ذاق البؤس وعرف الحرمان فى طفولته الحزينة ونشأته القاسية ، وخالط الملوك والرؤساء ، ولم يجد لهم مزية يمتازون بها عليه ، وهو مع ذلك محروم من الاستمتاع بالنفوذ والسلطان ، ومن المحتمل جدًّا أنه كان يحسدهم على ذلك ، وقد سعى سعيه عند كافور ليمنحه ضيعة أو ولاية فلم يوفق فى ذلك ، وقد أثار هذا الإخفاق حفيظته وجعله يهجو كافوراً هجاء مراً وقحاً ، ومن ذلك يتبين أن المتنبى كان طوال حياته حاسداً محسوداً ، ومن ثم كثرة ترديده للحسد واشتغاله به فى شعره .